الثلاثاء 13 أغسطس/ آب 2024 م 9 صفر 1446 هـ ◻ العدد 3634 السنة العاشرة
Tuesday 13 August 2024

العربي الجديد

هوامش

تمتلك قلعة القاهرة إطلالة ساحرة على مدينة تعز، وهي متنفس رائع للسكان والزوار بما توفره من حدائق وساحات، لكنها تضررت بسبب سنوات الحرب والصراع مثل غيرها من المعالم اليمنية

تمتلك قلعة القاهرة إطلالة رائعة على مدينة تعز (عامر الصبري)

قلعة القاهرة

حصن جبلي يحرس تعز عبر التاريخ

تعز ـ **فخر العزب**

تتميز مدينة تعز اليمنية بقلعتها الشامخة التي تحتضنها، وكانت حارستها في مختلف مراحل التاريخ، حتى أصبحت أيقونة ترمز إلى المدينة، فلا تذكر تعز إلا وذكرت «قلعة القاهرة» التي تعد واحدة من أهم المعالم الأثرية والسياحية في المحافظة. تقع قلعة القاهرة على ارتفاع 1500 متر عن سطح البحر، وهي مبنية على جبل أحمر اللون يقع في جنوب المدينة القديمة، وأسفل «جبل صبر» من الجهة الشمالية، ما يجعل القلعة تمثل حلقة وصل بين المدينة والجبل. ولا يعرف تاريخ بناء القلعة على وجه الدقة، لكن المصادر التاريخية تقول إنه تم تأسيسها قبل ظهور الإسلام، وتشير إلى أن الأمير عبد الله بن محمد الصليحي، اتخذها حصناً له في عهد الدولة الصليحية في القرن الخامس الهجري، وحين وصل الأيوبيون إلى اليمن في 569 هجرية الموافق 1173 ميلادية، استولوا عليها، وجعلوها مقراً لحكمهم، ثم صارت في عهد الدولة الرسولية حامية لمقر الملك المظفر يوسف بن عمر بن رسول، ثم آلت بعدها إلى دولة الطاهريين في سنة 924 هجرية، 1518 ميلادية، كما استخدمت سجناً في عهد أسرة آل حميد الدين الذين حكموا البلاد من 1918 حتى قيام الثورة اليمنية في 26 سبتمبر/أيلول 1962.

وتتميز القلعة بكونها ذات أسوار شاهقة، حيث كان لبنائها هدف سياسي وعسكري، ومن هنا جاء تسميتها «قلعة القاهرة»، كونها تقهر الأعداء، وتستعصي عليهم. وهي تتكون من حصون عدة مشيدة بإبداع هندسي يكشف عن فن العمارة الذي يمتاز به اليمن القديم، ومصممة بشكل عسكري يساعد في جعلها حصناً منيعاً يستعصي على الأعداء اقتحامه، كما يمنحها المقومات اللازمة لتكون مقراً للحكم، إذ تحوي قصوراً وسجوناً ومخازن وأنفاقاً وحدائق وأحواض مياه.

تتكون القلعة من جزئين رئيسيين، الأول يسمى «العدينة»، ويضم حدائق معلقة على هيئة مدرجات شيدت في المنحدر الجبلي، إضافة إلى سد مائي، وأحواض منحوتة في إحدى واجهات الجبل، إضافة إلى عدة قصور محاطة بأبراج حراسة ومتنزهات، وهذه القصور هي دار الأدب، ودار العدل، ودار الشجرة، ودار الإمارة الخاص بالملك، كما يضم هذا الجزء ممرات وأنفاقاً سرية ذات مهام عسكرية. ويسمى الجزء الثاني «المغربة»، ويضم عدداً من القصور، وأبراج حراسة، ومخازن الحبوب. وللقلعة سور شاهق بارتفاع 120 متراً، وسمك أربعة أمتار، ويتصل بسور مدينة تعز القديمة، والذي كان له أربعة أبواب رئيسة، وهي الباب الكبير، وباب الشيخ موسى، وباب المداجر، وباب النصر، وفوق كل باب برج مخصص للحراسة. وفي أسفل القلعة من الجهة الجنوبية تقع «قبة الشبزي» التي تنسب إلى الشاعر اليهودي سالم الشبزي، واسمه الكامل «موري شالوم شابازي» (1619-1720) وهو رجل دين وشاعر وعالم، ولد في تعز وعاش في حي المغربة، وقد تعددت مهامه، إذ كان حاخاماً وقاضياً ومعلماً، ومشرفاً على عقد الزيجات، وإجراء الختان للأطفال، إلى جانب قيامه بمهام جمع الجزية من أعضاء الطائفة اليهودية ليقدمها إلى الحكام.

باختصار

لا يعرف تاريخ بناء قلعة القاهرة على وجه الدقة، لكن المصادر التاريخية تقول إنه تم تأسيسها قبل ظهور الإسلام

■■■

حين وصل الأيوبيون إلى اليمن في 569 هجرية استولوا على القلعة، وجعلوها مقراً لحكمهم

■■■

تضم القلعة حدائق معلقة على هيئة مدرجات في المنحدر الجبلي، وسداً مائياً، إضافة إلى عدة قصور محاطة بأبراج حراسة

استخدامها سجناً

وفي التاريخ الحديث، استخدمت القلعة سجناً من الإمام أحمد بن يحيى حميد الدين، حيث كان يقوم باحتجاز أبناء شيوخ المناطق، ويفرض عليهم الإقامة الجبرية داخل القلعة من أجل ضمان عدم تمرد المشايخ على حكمهم الذي امتد من 1918 حتى قيام الثورة.

وفي هذه الفترة الزمنية، تدور في قلعة القاهرة أحداث رائعة الأديب اليمني زيد مطيع دماج «رواية الرهينة»، والتي تتناول حكم الأئمة في اليمن، وتحكي قصة طفل «ابن عم الكاتب»، تم أخذه رهينة وهو في الثانية عشرة من عمره، وكان يطلق عليه اسم الدويدار، وبات يقوم على خدمة نساء القصر، ثم يقع في حب شقيقة الحاكم، الشريفة حفصة، والتي تطلب منه أن يهربا، لكنه في نهاية الرواية يهرب وحيداً إلى المجهول. وخلال الفترة من 2002 إلى 2012، تم ترميم قلعة القاهرة وتأهيلها، وشملت عملية التأهيل إعادة بناء أسوار القلعة، ومدافن الغلال، ومساقي المياه، والطرق، والمرافق المختلفة، لكن الكثير من المتخصصين أخذوا على عملية التأهيل أنها قضت على الكثير من الملامح الحقيقية للطابع المعماري القديم للقلعة، وأدخلت تعديلات على كثير من تفاصيلها، ما جعلها تبدو كأنها بنيت حديثاً. لكن ترميم وتأهيل القلعة جعلها من بين أهم المزارات والمتنزهات السياحية في مدينة تعز، نتيجة جمالها المعماري، ومساحتها الكبيرة، وتنوع تقسيماتها، إضافة إلى إطلالتها الساحرة على المدينة، ما جعلها قبلة للزوار، وخاصة الأسر التي تجد في القلعة ملاذاً لقضاء الوقت.

قصف عسكري

وخلال الحرب التي تشهدها البلاد منذ 2015، قام الحوثيون بتحويل القلعة إلى ثكنة عسكرية، ما تسبب بقصفها بخمسة صواريخ من قبل طيران التحالف العربي في مايو/أيار 2015، وهو القصف الذي خلف دماراً في أجزاء منها، إذ تدمر متحفها تماماً، وتعرض مدخل القلعة وبعض أبراج الحراسة لأضرار بالغة. كما تعرضت الأماكن المجاورة حرمَ القلعة للنهب من بعض الأهالي الذين قاموا بالبناء فيها مسببين تشوهات لمحيط القلعة في ظل تساهل السلطة المحلية التي تغض الطرف عن هذه التعديات. وفي الفترة بين 2015 و2018، استُخدمت القلعة ثكنةً عسكرية من جماعة الحوثيين، وبعد تحريرها في نهاية 2015 تم استخدامها من الجيش التابع للحكومة الشرعية، وفي عام 2018 أصدر محافظ تعز حينها، أمين أحمد محمود، قراراً بخروج الجيش منها، وإعادة فتحها أمام الزوار، لتشهد عدة حفلات فنية ضمن مهرجان تعز العيدي. غير أنه أعيد إغلاق القلعة أمام الزوار نتيجة تساقط بعض الأحجار من عدة جهات فيها، ولا تزال مغلقة حتى الآن في ظل مطالبات شعبية بإعادة ترميمها وتأهيلها، وإعادة فتحها للزيارة.

وأخيراً

أصدقاء الليبي هشام مطر

نجوى بركات

ماذا يعني أن تُخلَقَ في بلادٍ معطوبةٍ، مسمومةٍ، يُقرّر مصائرَ أبنائها مستبدٌّ مهووسٌ بالسلطة أو بأوهام توسّع وخلود؟ وما الثمن الذي عليك دفعه طوال عمرك، وجيلاً إثر جيل، حتّى ولو تسنّى لك أن تنفذ بجلدك، فتعيش مُتخفّياً وبعيداً آلاف الكيلومترات؟ وأخيراً، بماذا تصنع عيشَك، وبمَ تملأ أيّامَك، وكيف تتخلّص من فتوق الروح، التي خلفها منفىً قسريٌّ أقمت فيه رغماً عنك؟ هذه بعض أسئلة يطرحها الكاتب الإنكليزي/ الليبي هشام مطر (1970)، الحائز عدّة جوائزَ عالميةٍ مرموقةٍ، منها بوليتزر- قسم السيرة، عن عمله «العودة» (2017)، في روايته الصادرة أخيراً (2024)، بعنوان «أصدقائي»، والمُرشّحة حالياً لجائزة بوكر العالمية. ذلك أنَّ حدثاً رئيساً شكّل وعي الكاتب مراهقاً، وحدّد مصيره، بعدما أُرسل بهُويَّة مُزوَّرةٍ، حمايةً له، إلى مدرسة داخلية في انكلترا، إذ اختطف والده المُعارض بشدّة لنظام معمّر القذافي من شقَّته في القاهرة عام 1990، حيث جرى إخفاؤه وتصفيته. شكّل هذا الحدث المأساوي تقريباً المادةَ الصلبةَ والنواةَ التي تستند إليها أعمال مطر بمُجملها، فيحضر الواقعُ الليبي الأسودُ بخصوصياته خلفيةً لمعاناةٍ إنسانيةٍ خالصةٍ يرفعها الكاتب إلى ما بعد السياسي والتاريخي، لتلاقي معاناةَ الإنسان أيّاً كان انتماؤه.

في «أصدقائي»، نحن نتبع ثلاث شخصيات رئيسة، شاءت لها أقدارها أن تلتقي في لندن، وتربطها علاقاتُ صداقةٍ قويةٍ. «خالد» (19 عاماً)، الراوي، تحصّل على منحة لدراسة الأدب خلال بضعة أشهر في أدنبره، حيث يلتقي «مصطفى»، الذي يجرّه للمشاركة في مظاهرة مناهضة للقذافي أمام السفارة الليبية في لندن، ذات يوم من إبريل/ نيسان عام 1984. بيد أنّ الدبلوماسيين الليبيين أطلقوا النار عشوائياً على الحشد، ما أدّى إلى مقتل شرطية بريطانية (الحادثة حقيقية)، وإصابة عددٍ من الطلاب إصاباتٍ خطرةً، من بينهم «خالد» و«مصطفى»، فنقلا إلى المستشفى وبقيا فيها أسابيع. لقد أصبحت العودة إلى ليبيا مستحيلةً، وها هو «خالد» مضطرٌّ للإقامة في بلدٍ غريبٍ لا يعرف فيه أحداً، ولا يملك مالاً، ولا يجرُؤ على التواصل مع أهله لكي لا يُعاقبون هم أيضاً. قبل ذلك بسنوات، في بنغازي، كان «خالد» قد استمع في السبعينيّات إلى مذيعٍ بارزٍ يقرأ في إذاعة بي بي سي البريطانية قصّةً قصيرةً لشّاب يُدعى «حسام»، ينتقد فيها ديكتاتورية القذافي. سيُقتل مذيع بي بي سي على يد النظام الليبي، وسيستقرّ اسم «حسام» في ذهن «خالد»، وسوف يتعرّف إليه في أدنبره، بفضل زميله الليبي «مصطفى». تلك هي الشخصيات الرئيسة، أمّا الرواية فتبدأ عام 2016، في محطّة كينغز كروس في لندن، حيث يلتقي «خالد» مصادفةً صديقه القديم «حسام» مغادراً مع زوجته وابنته إلى كاليفورنيا. يُودّعه «خالد»، ثم يخرج إلى شوارع لندن متجوّلاً في الأمكنة، غارقاً في ذكرياته وتأمّلاته، مُسترجعاً في «فلاش باك» طويل (هو الرواية) حياته وعلاقاته بمجموعة من الأصدقاء.

ما الذي يُعينُ على العيش في المنفى؟... الشحنة العاطفية التي يوفرها لنا الأصدقاء وتصنع لنا وطناً، والفضاء الذي نعيد تشكيلَه من ماضينا وحاضرنا، هذا ما يقوله لنا هشام مطر، إذ إنّ المنفى يرسم مساحةً داخليةً وجغرافيةً تُطوّر فيها الشخصيات علاقاتها فيصير الزمن شبه سائلٍ يتمازج فيه الماضي بالحاضر. فـ«حسام»، صاحب المجموعة القصصية التي أثّرت في الشباب، وابن العائلة الثرية وذات النفوذ في ليبيا، ترك الكتابة لأنّه فُرّغ من روحه، و«مصطفى» أصبح وكيلَ عقاراتٍ، والأصدقاء الثلاثة سيواجهون خياراً صعباً عند اندلاع الثورة في ليبيا. «مصطفى» سيعود إلى الوطن ليصبح مقاتلاً ثمّ قائدَ كتيبةٍ، «حسام» يقع في حُبّ الوطن والشعر العربي مرّة أخرى، وفي عشق ابنة عمّه التي سيتزوجها، أما «خالد»، مُحبّ الأدب والكتب وأستاذ المدرسة، فيقرّر قبول الحياة المتواضعة التي خلقها لنفسه في لندن، عازماً على أن يكون صادقاً مع نفسه. فعلى عكس المنفيين عامّةً، يبدو «خالد» متصالحاً مع البلد الذي استقبله ثقافياً واجتماعياً (يرد ذكر «موسم الهجرة إلى الشمال» في أكثر من موضع)، فهنا يشعر بحدٍّ أدنى من الأمان، ولديه ما يحتاجه من صداقات ومكتباتٍ عامّةٍ ومقاهٍ وحدائقَ فسحاتٍ للتأمّل والتفكير. وفي هذا ربّما تكمن إحدى ميزات روايةٍ «أصدقائي»، إذ ترتدّ السياسة إلى الوراء، مفسحةً لأبناء الأوطان المُخرَّبة، حيث الخوف خبزٌ يومي، أن يختاروا الحياة في المكان الذي يُوفّر لهم الشعور بالأمان، والحصول على القوت في أنواعه كلّها.

> في «أصدقائي»، ترتدّ السياسة إلى الوراء، مفسحةً لأبناء الأوطان المُخرَّبة اختيار الحياة في المكان الذي يُوفّر لهم الشعور بالأمان

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالاً**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,50**, Austria **€ 2,50**, Belgium **€ 2,50**, France **€ 2,50**, Germany **€ 2,50**, Holland **€ 2,50**, Italy **€ 2,50**, Spain **€ 2,50**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 10,00**, USA **$ 2,00**